

(المجموعة الثانية)
حكايات أخلاقية

0

اليد الصغيرة



رسم / عبد الرحمن بكر

تأليف / أمل شوقي طه

فتحت نافذة كوخنا الصغير المطل على شاطئ البحر أراقب الطريق انتظارا
لعودة أمي من عملها. كانت الشمس قد أوشكت على المغيب، والجو بارداً
والهواء يعبث بكل ما يقابله في قوة مُنذر بهطول المطر. وما هي إلا دقائق حتى
بدأ يتساقط المطر ويشتد تباعاً.

كنت قلقاً على أمي فكيف ستسير في هذا المطر
وصحتها لا تحتمل هذا؟

أخذت المظلة وانطلقت على الطريق لأقابلها بها
لتحتمي تحتها من المطر الذي غمر المكان بقوة.

لمحتها على أول الطريق وهي
تُحاول أن تلملم ملابسها حولها
لتتقي المطر... أسرع نحوها
فأحاطتني بذراعيها في إشفاق
وقالت: أخرجت في هذا المطر يا
ولدي؟!

أدّيت منها المظلة وأسندت
يدها على كتفي قائلاً:



- رَاحَتُكَ هِيَ رَاحَتِي يَا أُمِّي، فَقَدْ كُنْتُ قَلِقًا لَتَأْخُذَكَ الْيَوْمَ، فَأَجَابَتْنِي وَهِيَ مَا زَالَتْ تَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهَا: مَعْدِرَةٌ يَا بَنِي فَقَدْ كَانَ الْعَمَلُ كَثِيرًا الْيَوْمَ. تَمَتَّعْتُ فِي حُزْنٍ:

مُنْذُ وَفَاةِ وَالِدِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَخُرُوجِكَ لِلْعَمَلِ وَأَنْتِ تُرْهِقِينَ نَفْسَكَ كَثِيرًا. رَبَّتْ عَلَيَّ كَتْفِي وَعَلَيَّ وَجْهَهَا بِسَمَةِ حَانِيَّةٍ وَقَالَتْ: لَا عَلَيْكَ يَا صَغِيرِي، فَايْتَسَامَتِكَ لِي حِينَ عَوْدَتِي تُزِيلُ عَنِّي كُلَّ تَعَبِي، هَيَا بِنَا نُسْرِعْ إِلَى الْبَيْتِ. وَلَمَّا وَصَلْنَا وَجَدْتُ أُمِّي الطَّعَامَ مُعَدًّا عَلَى الطَّائِلَةِ الصَّغِيرَةِ. سَرَتْ أُمِّي وَقَالَتْ:

- أَجْهَدْتُ نَفْسَكَ يَا وَلَدِي، كُنْتُ سَاعِدُهُ عِنْدَ عَوْدَتِي. قَبِلْتُ يَدَهَا قَائِلًا:

- هَذَا لَا يُسَاوِي شَيْئًا أَمَامَ تَعَبِكَ مِنْ أَجْلِي. انْتَهَيْنَا مِنْ تَنَاوُلِ الْعِشَاءِ فَقَامَتِ أُمِّي وَهِيَ تُتَحَامَلُ عَلَى نَفْسِهَا وَالنَّوْمُ يُرَاوَدُ عَيْنَيْهَا الْمَجْهَدَتَيْنِ قَائِلَةً لِي:

- هَيَا يَا صَغِيرِي. اذْهَبِي إِلَى فِرَاشِكَ لِتَنَامِ. فَقُلْتُ: حَاضِرٌ يَا أُمِّي وَأَنْتِ أَلَنْ تَنَامِي لِتُرَاحِي. فَقَالَتْ: نَعَمْ يَا بَنِي لَكِنَّ الصَّلَاةَ أَوَّلًا.

نَمْتُ فِي فِرَاشِي وَأَنَا أَتَأَمَّلُ أُمِّي وَهِيَ تُصَلِّي، ثُمَّ جَلَسْتُ تُدْعُو رَبَّهَا. قُلْتُ فِي نَفْسِي:



- حفظك الله يا أمي كما تحفظين صلاتك رَغْمَ غنائك.
غلبني النوم فلم أشعر إلا بقبلة أمي التي تطبعها على جبيني كل صباح
وعبارتها الرقيقة :

- صباح الخير والسرور يا ولدي الحبيب.
نظرت إليها وبادلتها التحية وقبلة الصباح.
فإذا هي مرتدية ثوبها استعداداً للخروج.. فتحت أمي الباب فاندفعت
تيارات الهواء البارد تهاجم الكوخ.. جريت ناحيتها قائلاً:
- لا تخرجي في هذا البرد القارص يا أمي، انتظري حتى يعتدل الجو.
قالت أمي وهي تحمل حقيبة يدها:
- لا أستطيع يا ولدي، فإذا تأخرت عن العمل فسيخضم مني صاحب
العمل أجر اليوم. نظرت إلى ثوبها الخفيف قائلاً:
إن هذا الثوب لا يدفئك لا بد أن يكون لديك معطفاً ثقيلاً ترتدينه ليقيك البرد.
ابتسمت أمي وهي تعبت بشعري في رفق قائلة:
- لا تعباً يا بني، ففي ذهني شيء أهم وأنا أدخر له.
ودعنتي أمي وسارت تشق طريقها بكل عزيمة لديها وكأنها تبادر قسوة الجو
بانهجوم حتى تسيطر عليه وتواصل سيرها.
تابعها بعيني حتى اختفت وسط الضباب المخيم على الطريق.



جَلَسْتُ دَاخِلَ الْكُوْخِ مَهْمُومًا لِأَجْلِ أُمِّي فَمَاذَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَخَفِّفَ عَنْهَا كُلَّ هَذِهِ الْمَشَقَّةِ.

أَخَذْتُ أَفْكَرَ طَوِيلًا حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَى أَنْ أَذْهَبَ لِلْعَمِّ رَاشِدَ صَدِيقِ وَالِدِي فَهُوَ يَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ شَبَاكِ الصَّيْدِ، سَأَذْهَبُ إِلَيْهِ وَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ أَعْمَلَ عِنْدَهُ فِي هَذِهِ الْحِرْفَةِ حَتَّى أَتَقْنَهَا وَأَحْصِلَ مِنْهَا عَلَى مَا لِي.

ذَهَبْتُ إِلَيْهِ عِنْدَ الشَّاطِئِ حَيْثُ يَنْتَشِرُ الْعَامِلُونَ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ خُيُوطُ الْغَزْلِ الَّتِي يَنْسَجُونَهَا شَبَاكًا.

قَابَلَنِي الْعَمُّ رَاشِدٌ بِكُلِّ تَرْحَابٍ مُهْلَاةٍ:

- مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ أَعَزِّ الْأَصْدِقَاءِ، كَلَّمَا رَأَيْتُكَ تَذَكَّرْتُ وَالِدَكَ - رَحِمَهُ

اللَّهُ - وَالْأَيَّامَ الْجَمِيلَةَ الَّتِي قَضَيْتَهَا سَوِيًّا فِي رِحَالَاتِ الصَّيْدِ الَّتِي قَمْنَا بِهَا.

تَفَاءَلْتُ بِحَدِيثِهِ وَأَخْبَرْتُهُ بِأَنْتِي أَتَيْتُ إِلَيْهِ رَاجِعًا فِي أَنْ أَعْمَلَ عِنْدَهُ فِي غَزْلِ

شَبَاكِ الصَّيْدِ لَكِنَّهُ أَثَارَ خَوْفِي بِسْؤَالِهِ:

أَلَسْتُ صَغِيرًا عَلَى هَذَا الْعَمَلِ؟

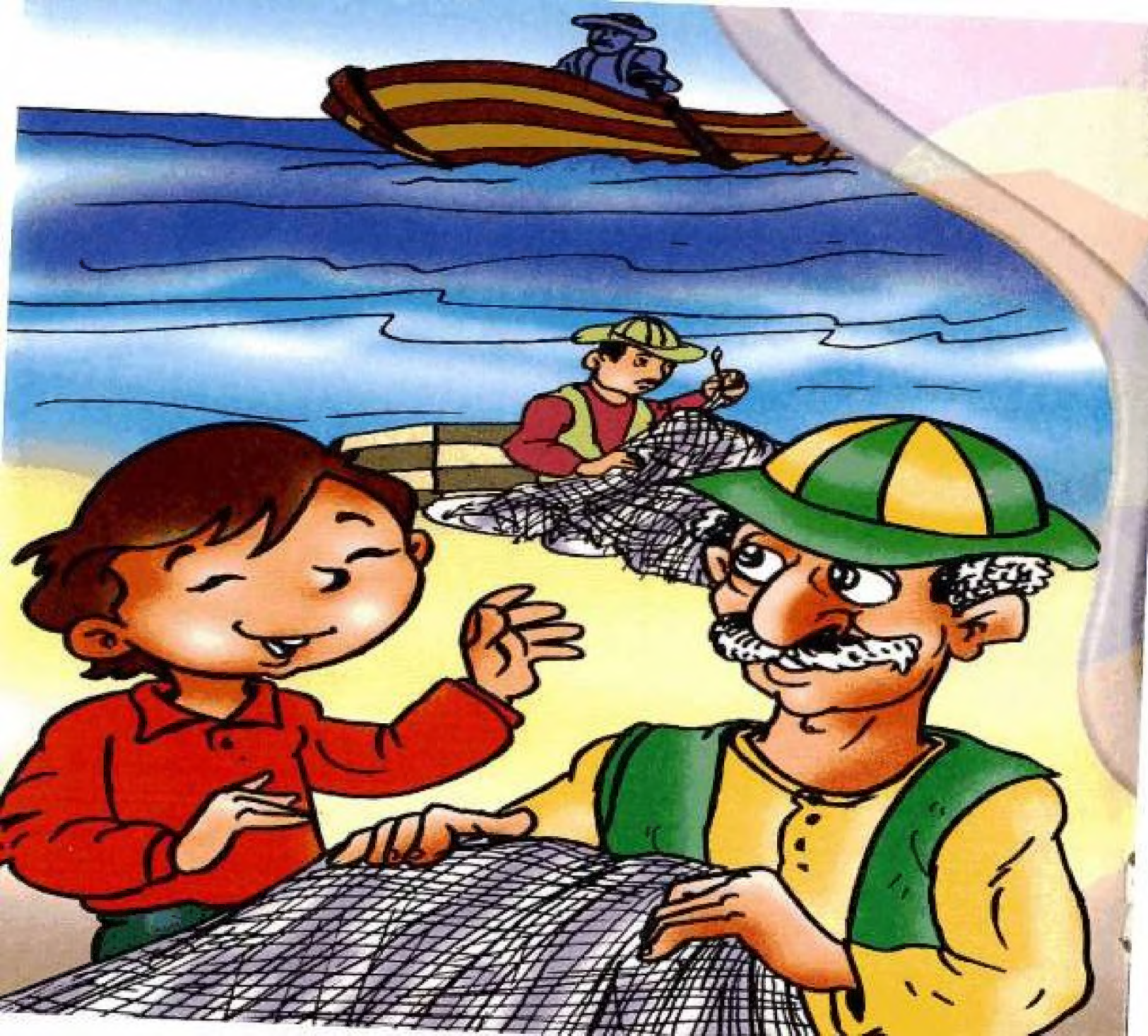
فَقُلْتُ فِي لَهْفَةٍ:

جَرَّبْنِي يَا عَمَاهُ... أَرْجُوكَ.

فَتَبَسَّمَ وَقَالَ لِي:

إِذَا سَأَلْتُكَ غَدًا لَتَبْدَأَ الْعَمَلَ.

فَرِحْتُ بِمُوَافَقَتِهِ وَشَكَرْتُهُ عَلَى حَسَنِ ظَنِّهِ بِي وَوَعْدَتِهِ أَنْ أَكُونُ جَدِيرًا بِهَذِهِ الْفُرْصَةِ.



ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُ وَالِدَتِي فِي أَنْ أَذْهَبَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ عِنْدَ الْعَمِّ رَاشِدٍ حَتَّى أَشَاهِدَ عَمَلَ الْغَزْلِ فَوَافَقَتْ عَلَيَّ ذَلِكَ الْأَمْرَ حَتَّى أَتَسَلَّى فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي تَكُونُ هِيَ فِي عَمَلِهَا، لَكِنِّهَا اشْتَرَطَتْ أَنْ يَكُونَ وَقْتُ الْمَذَاكِرَةِ أَوَّلًا.

وَبَدَأْتُ أَذْهَبُ لِلْعَمِّ رَاشِدٍ. وَكُلَّ يَوْمٍ أَجْتَهِدُ فِي مَذَاكِرَتِي لِأَنْهِيَهَا بِسُرْعَةٍ ثُمَّ أَسْرَعُ لِعَمَلِي، كَانَ إِصْرَارِي عَلَى التَّعْلَمِ بِجَعْلِي أَذَقُّ وَأَفْهَمُ سَرِيعًا كُلَّ مَا يُقَالُ لِي مِنْ إِرْشَادَاتٍ وَكَانَ الْعَمُّ رَاشِدٌ يَمُرُّ عَلَيْنَا مِنْ وَقْتٍ لآخر فَيُظْهِرُ إعْجَابَهُ بِتَقَدُّمِي السَّرِيعِ فِي التَّعْلَمِ.

وَفِي لَيْلَةِ الْعِيدِ -بَعْدَ أَسْبُوعَيْنِ مِنَ التَّدْرِيبِ وَالْعَمَلِ- حَضَرَ الْعَمُّ رَاشِدٌ لِيَرَى مَا صَنَعْتُهُ بِيَدِي. أَتَنَّى عَلَى إِتْقَانِ الْغَزْلِ وَأَخْرَجَ مِنْ جِيْبِهِ بَعْضَ النُّقُودِ وَقَالَ لِي:
هَذَا هُوَ أَجْرُكَ يَا بَنِي.

مَدَدْتُ يَدِي فِي سُرُورٍ فَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ أَرْبِخُ مِنْ عَمَلِ يَدِي فَأَكْمَلُ حَدِيثَهُ وَهُوَ يَعْطِينِي نُقُودًا أُخْرَى:

وَهَذِهِ عِبْدِيَّةُ الْعِيدِ.. كُلَّ عَامٍ وَأَنْتَ بِخَيْرٍ يَا وَلَدِي.

كَدْتُ أَنْ أَطِيرَ مِنَ الْفَرَحِ.. أَمْسَكْتُ النُّقُودَ.. أَخِيرًا سَوْفَ أَحَقِّقُ مَا تَمَنَيْتُهُ.. فَهَذِهِ النُّقُودُ هِيَ الَّتِي كُنْتُ أَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِأَشْتَرِيَ مَا أُرِيدُهُ، وَسَتَكُونُ مَنَاسِبَةً طَيِّبَةً أَنْ أَحْضَرُهُ فِي لَيْلَةِ الْعِيدِ، فَذَهَبْتُ مُسْرِعًا لِشِرَائِهِ وَعِنْدَ عَوْدَتِي إِلَى الْبَيْتِ وَجَدْتُ أُمِّي فِي انْتِظَارِي بِابْتِسَامَتِهَا الْعَبْدِيَّةِ تَقُولُ لِي: أَغْمَضُ عَيْنَيْكَ عِنْدِي لَكَ مُفَاجَأَةً.
انْدَهَشْتُ وَقُلْتُ لَهَا:



وأنا أيضا عندي لك مفاجأة.. أغمضي عينيك أولاً.. هيا يا أمي، فتحت
هديتي وأخرجت ما بها ثم لففته حول كتفي أمي قائلاً لها:
الآن افتحي عينيك.

نظرت أمي إلى ما يحيط بها فإذا هو معطف شتوي ذو قراء.
فقالت في ذهشة:

من أين أتيت بهذا المعطف؟

حكيت لها ما فعلته فتأثرت بما قلته وأمسكت بكفي ونظرت إليهما في
إشفاق قائلة:

- أهذه اليد الصغيرة قويت على غزل الشباك؟

نظرت إليها بامتنان قائلاً:

- اليد الصغيرة قويت بحبي لك يا حبيبي. فقد كنت حين أغزل بها أنجيل
أنتي لا أغزل شبكة بل أغزل لك خيوط المعطف الذي سيدفع عنك برد الشتاء.
نظرت إلى نظرة عطف شعرت أنها تحنني بها ثم قالت:
والآن أغمض أنت عينيك لحظة.

أغمضت عيني ثم فتحتهما لأجدها تحمل بين يديها حذاء جديدا لي.

تذكرت قولها حين أخبرني أن في ذهنها شيئا أهم من المعطف الذي يدهنها
فسألتها: أهذا ما كنت تدخرين من أجله.



ضممتني في خنان وقالت: وهل عندي ما هو أغلى منك يا صغيري، فقد
كنت أعلم أن حذاءك القديم قد ضاق عليك وأنت لا تريد أن تُخبرني حتى لا
تُحملني عبء شراء آخر جديد.
قبلت يدها وأنا أدعو لها: حفظك الله لي يا أمي الغالية.
دعت لي: وبارك لي فيك يا ولدي الحبيب.

